

المخطوط بالمغرب الأوسط دراسة في الخط والنسخ والتفسير

The Manuscript in Middle Maghreb Study in calligraphie, Transcription, Binding.

عيسى كروم

جامعة ابي بكر بلقايد تلمسان

Kerroum.aissa@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/07/06 تاريخ القبول: 2022/11/13 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

بدأت معالم الخط المغربي في الظهور، حينما بدأ الخطاطون يتخذون لحروفهم نسقا و شكلا بعيدا عن الحرف المشرقي، إلى جانب الخط المغربي فان الخط الأندلسي كان له هو الآخر حضور، و كان أهل المغرب الأوسط يستعملون الرق المهيأ من الجلود للكتابة، لاسيما قبل انتشار الورق وظل الرق هو المفضل لدى ناسخي المصاحف، لم تكن عملية النسخ حكرًا على فئة تحترف النسخ، بل هناك من كان ينسخ الكتب والمصاحف، لينتفع بها هو وأسرته، وكان الناسخ يقوم بعملية التذهيب، وذلك باستعمال ماء الذهب أو ما كان يعرف بحجر الذهب ليكتب به ما أراد اعتبرت صناعة التفسير من الصناعات الهامة، والتي تمثل المرحلة الأخيرة من صناعة المخطوط، وهي تعد ضمن الفنون العربية الجميلة، فلم تعد مجرد كسوة الكتاب بالجلد بل أصبحت فنا بفضل ما يحمله الكتاب من زخرفة وتزييق، و تلوين، وتذهيب.

كلمات مفتاحية: المخطوط، التفسير، المغرب الاوسط، الوراقة، النسخ

Abstract:

the Maghreb calligraphy began to appear, when the calligraphers began to take their letters for their letters and shape away from the Levantine letter, along with the Maghreb calligraphy, the Andalusian line also had a presence, and the people of the Middle Maghreb used to use slavery prepared from the leather for writing, especially before the spread of paper and remained Slavery is the favorite of the copies of the Qur'ans, the

copying process was not exclusive to a category that professionalized the copies, but there were those who were copying books and the Qur'an, to benefit from him and his family, and the copyist was doing the process of gilding, using gold water or what was known as the ink of gold to write what he wanted. The travel industry was considered one of the important industries, which represents the last stage of the manuscript industry, and it is considered among the beautiful Arab arts, as it is no longer just the book of the book in the skin, but rather has become an art, thanks to the decoration and decoration that the book carries, coloring, and gilding.

1. مقدمة:

كانت صناعة المخطوط من الحرف التي تخصصت فيها فئة بعينها لتساهم في النشاط الحضاري للمغرب الأوسط؛ حيث أن المخطوط أصبح شاهدا على ذلك الإبداع الحضاري الاسلامي، ولا يزال محط أنظار الباحثين لما يتميز به من خصائص فنية و إبداعات أدبية وعلمية؛ وإذا كان المخطوط الموجود اليوم بين أيدينا حاملا في طياته ما توصل إليه العقل الإنساني من انجازات فكرية عبر مختلف الحقب التاريخية، فإن الفضل يرجع إلى نخبة شاركوا في إنتاجه من الوراقين والنساخ ومفسرين.

إذا كانت الموضوعات المتعلقة بالمخطوط في الوطن العربي قد أخذت ما يناسبها من الاهتمام والدراسة فإنه على العكس من ذلك ما تعلق بالمخطوط في المغرب الأوسط من المواضيع التي لا تزال بكرا، حيث لم تستوفي حقها من البحث، ولعل الأمر يرجع إلى شح المادة في المصادر، والبحث فيها شبه مغامرة. وفي محاولتنا هذه سنسعى لتقريب صورة ولو بسيطة عن صناعة المخطوط بالمغرب الأوسط من خلال ما أتيح لنا من مادة مصدريّة بين أيدينا.

ولمعالجة هذا الموضوع ارتأينا أن ندرسه من خلال مناقشة المراحل التي تتم فيها عملية صناعة المخطوط، من الخط العربي وما يتميز به من خصوصية و هو أساس كتابة المخطوط، ثم حوامل الكتابة والمتمثلة في الرق والورق، لنتعرف بعدها على عملية النسخ واشهر الناسخين في المغرب الأوسط، ثم مرحلة تذهيب المخطوط لنختم الدراسة بعملية التفسير. وكل ذلك من خلال الإجابة على الإشكال التالي: ما هي المراحل التي تمر بها عملية إنتاج المخطوط؟ ومن هم المساهمون في انجاز الكتاب المخطوط؟

2. الخط المغربي: الظهور والتطور

1.2 بداية ظهور الخط العربي في بلاد المغرب:

كانت بداية ظهور الخط العربي في بلاد المغرب مع انتشار الإسلام، حيث كان الفاتحون يعملون على نشر الدين الجديد وتعليمه للبربر، إلى جانب تعليمهم اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، إذ يعتبر تعلم الحرف العربي سبيلاً لتعلم القرآن الكريم؛ كما انتشرت عملية نسخ القرآن الكريم على أيدي الفاتحين في المساجد فتمكن البربر من تعلم الكتابة والقراءة، فقد نسخ عقبة بن نافع المصحف الذي عرف فيما بعد بالمصحف العقباني في القيروان، من المصحف العثماني¹، وعندما قرر العودة بعد أن استكمل الفتح بالمغرب الأقصى ترك بعض أصحابه يعلمون الناس القرآن الكريم²، فقد وردت إشارة عند أبي زيد الدباغ صاحب معالم الإيمان أن عملية التعليم وقتها كانت تتم في الكتاتيب³ التي أنشأها المسلمون لنشر الحرف العربي في أوساط البربر، ونفس الشيء قام به موسى بن نصير حيث أمر العرب أن يُعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين.⁴

زيادة على ما ذكرنا فإن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أرسل بعثة تتكون من عشرة من التابعين إلى بلاد المغرب، بهدف تعليم الناس دينهم وتلقين الصغار اللغة العربية، وتحفيظهم القرآن الكريم⁵، فكانت هذه العملية من العوامل التي ساهمت في انتشار الخط العربي في المنطقة؛ وخلال منتصف القرن الثاني للهجرة توافد على بلاد المغرب كثير من الدعاة والعلماء

¹ حسن الوراكلي، مباحث في تراث الغرب الإسلامي، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 2013، ص58

² ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، ج1، تحقيق، ج.س. كولان و ليفي برونفسال، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان، 1983، ص42

³ أبو زيد الدباغ (697هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد أبو النور و محمد ماضي، المكتبة العتيقة، تونس، دت، ص151

⁴ ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص42

⁵ نفسه، ص48.

والفقهاء العرب، كانت لهم مساهمة فعالة في نشر الحرف العربي، زاد من تقلص بقية الحروف التي كانت مستعملة آنذاك وكان سببا جعل البربر يهجرون حروفهم⁶، ويقبلون على حروف القرآن العظيم بالخط العربي الجميل.

كانت الكتابة التي تكتب بها المصاحف والتي وصلت إلى بلاد المغاربة أغلبها مخطوطة بالخطيين الحجازي والكوفي⁷، فكانا هما الأصل في تطور الخط ببلاد المغرب وكان أهل افريقية وبقية البلاد المغربية قد تأثروا بالخط الكوفي العراقي فتولد عنه الخط الكوفي القيرواني⁸. وفي هذا السياق أكد ابن خلدون أن أول خط مغربي تميّز عن الخط الكوفي المشرقي، هو الخط القيرواني الذي ظل معروف الرسم إلى عصره، وكان يقرب من أوضاع الخط المشرقي⁹؛ وقد ظل الخط الكوفي يسيطر على جل النسخ التي نسخت طيلة القرنين الثاني والثالث الهجريين في كل أنحاء الغرب الإسلامي، رغم تكييفه مع الطبيعة والظروف المغربية فقد ظل مشرقيا¹⁰.

2.2 نشأة وتطور الخط المغربي

بدأت معالم الخط المغربي في الظهور، حينما بدأ الخطاطون ويتخذون لحروفهم نسقا و شكلا بعيدا عن الحرف المشرقي، كما أصبح كل إقليم من الغرب الإسلامي يجعل لحروفه طابعا خاص به، وسمي كل خط باسم البلد الذي طبق فيه، فكان الكوفي القيرواني، و الكوفي الأندلسي، والكوفي المغربي، والكوفي السوداني، وهي جميعا ستأخذ تسمية الخط المغربي؛ لقد ورد عند صاحب الدراية عند ترجمته لأبي عبد الله

⁶ كان البربر يستعملون حروف التيفناغ، وكان قد اندثر بمدة طويلة قبل دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا، (عمر افا و محمد المغراوي، الخط المغربي تاريخ و واقع وأفاق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص29).

⁷ هو أصل الخط العربي وأقدمه، كان بسيطا في بداية أمره لا توريق فيه، ولا تعقيد، ولا ترابط بين حروفه، (محمد طاهر بن عبد القادر، تاريخ الخط العربي وآدابه، مكتبة الهلال، مصر، 1939، ص42)

⁸ نفسه ص32

⁹ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق، احمد الزعبي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص457.

¹⁰ احمد شوقي بنين، في الكتاب العربي المخطوط، دار أبي ررقا للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2013، ص70.69

محمد بن احمد بن محمد بن عبد الله¹¹ والذي عاش في القرن السابع الهجري انه كان في غاية الجودة في الخط المشرقي؛¹² وهي إشارة على أن الخط الكوفي كان لا تزال له حظوة عند النساخ الى جانب الخط المغربي الذي اظهر تميزه، وكان منهم من يجمع بين الخطيين فقد ذكر يحي بن خلدون أن أبا الحسن القلي كان فقيها أديبا، حسن الخط مغربيّه و مشرقّيّه.¹³

كان الخط المغربي مستعملا في كافة الغرب الإسلامي بما فيها الأندلس، إلا أن الأندلسيين أخذوا في التميز بخطهم في الفترات اللاحقة، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في قوله "وتحيز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع و الخطوط فتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد"¹⁴.

وانتقل الخط الأندلسي إلى شمال إفريقيا بداية من القرن الخامس الهجري مع موجات المهاجرين خلال العصر المرابطي، فكان منهم الناسخ والمدون الذين تمكنوا من نشره في مختلف البلدان،¹⁵ حتى كاد أن يتغلب على الخط المغربي وفي هذا السياق يقول ابن خلدون عنهم " فغلب خطهم على الخط الإفريقي ونسي خط القيروان..."¹⁶ غير أن بلاد الجريد في تونس حافظت على الرسم القيرواني ولم يتأثر أهلها بالخط الأندلسي بل تمرسوا فيه وبفضلهم صار الخط القيرواني أحسن الخطوط.¹⁷

¹¹ محمد بن احمد بن محمد بن عبد الله ابو عبد الله الاريسي عاش في القرن عاش في بداية في المائة السابعة للهجرة، (عادل نويهض، أعلام الجزائر مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ص 15)

¹² ابو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط3، بيروت، لبنان، 1979، ص 249

¹³ يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 136

¹⁴ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 457

¹⁵ سهى محمود معيون، كتابة المصاحف في الأندلس، مجلة الدراسات القرآنية، العدد السابع ، السنة الرابعة، ص 147

¹⁶ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 457

¹⁷ نفسه، ص 457

في نهاية عصر الموحدين بدأ الخط المغربي يميل نحو الرداءة، وعلل ابن خلدون ذلك "بفساد الحضارة وتناقص العمران".¹⁸ ومع ذلك فقد "بقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك، لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها".¹⁹ لكن ابن خلدون لا يوضح ما إذا كانت رداءة الخط مست أيضا خط المصحف الشريف، إذ لم يكن يُقبل على نسخ المصاحف إلا من كان متمرسا في الرسم والضبط باعتباره كتابا مقدسا، لا يجب أن تكون فيه أخطاء أو رداءة فيتحمّلها ناسخها، كما أن المخطوطات القرآنية التي تعود إلى عصر ابن خلدون لا يظهر فيها ما وصفه من رداءة، أو صعوبة القراءة بل وُجدت بجودة عالية في الرسم والضبط .

إلى جانب الخط المغربي فإن الخط الأندلسي كان له تأثير كبير في نفوس أهل المغرب، خاصة الخط المعروف بالخطوسي حيث يذكر ابن مرزوق الخطيب²⁰ أن أحد أجداده²¹ كان له خط حسن يشبه الخط الخطوسي يكتب به المصاحف.²² ونفس الأمر ينسحب على المصحف الذي نسخه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق حيث أشار محمد المنوني انه وقف عليه بالمعهد العالي بتطوان مكتوب بخط أندلسي عتيق.²³ على الرغم من منافسة الخط الأندلسي للخط المغربي إلا أن هذا الأخير قد عمّ جميع أرجاء الغرب الإسلامي، وقد يكون ذلك بسبب شدة الارتباط بالمذهب المالكي، فظل الخط المغربي هو الخط الرسمي في هذه البقاع طوال عشرة قرون.²⁴

¹⁸ نفسه، ص 457.

¹⁹ نفسه، ص 457.

²⁰ هو محمد (الرابع) بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، المعروف بالخطيب ولد بتلمسان 711هـ/1314م ومات في القاهرة عام 781هـ/1379، وهو صاحب كتّاب المناقب المرزوقية، والمسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، (محمد ابن مرزوق، والمسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيوس بغيرا، موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص19)

²¹ هو محمد بن أبي بكر بن مرزوق عاش ما بين القرنين السادس والسابع الهجريين (محمد ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص16)

²² محمد ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2008، ص148.

²³ محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص22

²⁴ أحمد شوقي بنين، المرجع السابق، ص72

3. حوامل الكتابة: الرق والورق

استعمل الناس لحوامل الكتابة مواد ساعدتهم على النسخ، فإذا كان المصريون فضلوا البردي على غيره من المواد الأخرى بسبب سهولة استعماله ولتوفره في المنطقة، فإن الأمر يختلف عند أهل المغرب الأوسط فكان مثل بقية أنحاء الغرب الإسلامي يستعملون الرق و الورق.

إن المعلومات الواردة إلينا حول هذا الموضوع تكاد تكون منعدمة إلى حد اليوم، فلم تشر المصادر إلى نوع الحامل الذي كان مستخدما بكثرة، ولكن من خلال المعلومات المتواضعة والتي حصلنا عليها على شكل إشارات اتضح لنا أن أهل المغرب الأوسط كانوا يستعملون الرق²⁵ المهيأ من الجلود للكتابة، وكان هو المادة لأكثر شيوعا لاسيما قبل انتشار الورق، ولما كثر التأليف وضاق الرق عن تلبية حاجات الناسخين والمدونين، جاء عصر الورق وانتشر استعماله لسهولة استخدامه و توفره.²⁶ فقد نقل المسلمون صناعة الورق من الصينين، وفي هذا الإطار يقول القلقشندي "كان أهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه من الحشيش و الكأ، وعنهم اخذ الناس صناعة الورق"،²⁷ وانتقلت إلى بلاد المغرب عن طريق أهل المشرق فقد قام هارون الرشيد بإنشاء مصنع لصناعة الورق في حدود سنة 178هـ/794م

ولم يعرف المغرب الأوسط استعمال الكاغد(الورق) خلال القرون الأولى فلم تذكر المصادر أن الدولة الرسمية كان لها مصانع لصناعة الورق،²⁸ وعلى الرغم من دخول الكاغد إلى بلاد المغرب خلال القرن الرابع الهجري إلا أن استعماله كان قليلا وقد يعود ذلك إلى تدهور صناعة الورق خاصة بعد الهجرة الهلالية، حيث قل إنتاج مادته الأولية، وفي منتصف القرن الخامس الهجري كانت مدينة فاس هي الممول الرئيسي للكاغد لبقية مدن المغرب الإسلامي حيث كان يوجد بها ما يقرب من 104 معمل للكاغد²⁹

²⁵ الرق وهو جلد حيوان تمت معالجته بالتجفيف والدباغة وصار صالحا للكتابة، (احمد شوقي بنين، و مصطفى طوي، معجم مصطلحات المخطوط العربي، المطبعة والوراقة الوطنية،مراكش، المغرب، 2003، ص115)

²⁶ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق، احمد الزعبي، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص460

²⁷ القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1913، ص475

²⁸ إبراهيم بحاز، الدولة الرسمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993،

ص 205

²⁹ محمد المنوني، تاريخ الوراقة، ص21

مع النصف الأول من القرن التاسع الهجري أصبح الورق يكثر ويحل محل الرق حيث كان يجلب بكميات كبيرة من أوروبا؛ وهذا ما لمسناه من خلال المسألة الفقهية التي أثّرت حول استعمال الكاغد الرومي باعتباره مادة نجسة، فكانت الفتوى المشهورة التي جاءت على لسان محمد بن مرزوق الحفيد (ت 842هـ) المسماة تقرير الدليل الواضح المعلوم على جواز النسخ في كاغد الروم.³⁰ ومن خلال القراءة للنازلة يظهر أن صناعة الورق لم تكن موجودة في تلمسان على الأقل مع مطلع القرن التاسع الهجري أولم يكن يكفي حاجاتهم، كما يستنتج منها شيوع استعمال الكاغد المجلوب من أوروبا في عمليات النسخ وقت ابن مرزوق.

حافظ الرق على خصوصيته فكان هو المفضل لدى ناسخي المصاحف في مختلف الفترات التاريخية، ويبدو أنهم كانوا يفضلونه لطول عمره، و بسبب أرفه وقلة التأليف،³¹ ويظهر ذلك من خلال المخطوطات الباقية إلى يومنا هذا، ومنها المصحف الذي نسخه أبو عبد الله بن محمد بن مرزوق (توفي 781هـ) والموجود في المعهد العالي بتطوان هو الآخر منسوخ على رق غزال،³² وأيضا المصحف الموجود في الخزانة العامة بالرباط، نسخه السلطان أبي زيان محمد الثاني المتوفى سنة 805هـ نسخه بتلمسان عام 801هـ مكتوب بخط مغربي جميل، على رق غزال.³³ ربما استعمل بسبب طول عمر الرق أكثر من الورق، وكانت بعض المخطوطات تنسخ على الرق وعلى الورق في آن واحد، وفي هذه الحالة تكون الأوراق الأولى والأخيرة والغلاف من الجلد لضمان سلامته.³⁴

4 النسخ واشهر الناسخين بالمغرب الأوسط

³⁰ أبو العباس بن أحمد بن يحيى الوشيعي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس والمغرب، تحقيق محمد

حجي، ج 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص75

³¹ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص460

³² محمد المنوني، تاريخ الوراقة، ص22

³³ محمد المنوني، تاريخ الوراقة، ص22

³⁴ احمد شوقي بنين، المرجع السابق، ص73

تعتبر عملية نسخ الكتاب أهم مرحلة في صناعة الكتاب المخطوط، وكان لهذه العملية أصحابها الذين تميزوا بجودة الخط، وقد أولى لها أهل المغرب الأوسط عناية كبيرة ولاسيما نسخ المصاحف، على الرغم من صمت المصادر عن تزويدنا بمعلومات وافية عن أهم الشخصيات التي مارست النسخ في المغرب الأوسط فلا يعني قلتهم أو انعدامهم، فقد وقفنا على إشارات من خلال تراجم بعض الأعلام تدل على وجود عدد كبير من الناسخين، وقد اكتفت بذكر نوع الخط الذي كان يتميز به الناسخ، ولكن من غير المستبعد أن هؤلاء الناسخين، فعالية الناسخين كانوا يجيدون عملية التفسير.

وتكتفي جل المصادر إلى الإشارة إلى أشهر الناسخين بوصفهم أنهم بارعين في الخط أو تشير إليهم بعبارة "كان حسن الخط"، ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعقوبي³⁵ كان بارع الخط جامعا للكتب³⁶، وهذه العبارة كافية للحكم عليه بأنه كان يجمع الكتب وينسخها، والفقيه محمد بن عبد الله بن داود بن الخطاب الغافقي، نزيل تلمسان وأصله من بلنسية، كان كاتباً صاحب خط بارع،³⁷ و منصور بن علي بن عبد الله الزواوي³⁸ وصفه يحيى بن خلدون بأنه كان صاحب خط حسن وكتابة نبيلة.³⁹

و من أهم المصادر الهامة التي أشارت إلى من كان يقوم بعملية النسخ، كتاب "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لصاحبه أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله (644هـ). 714هـ) فقد ذكر لنا عددا من الذين كانت لهم خطوط حسنة، وكانوا بارعين في النسخ ومنهم أبو

³⁵ هو محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعقوبي (710 – بعد 770هـ) نشأ في بجاية وأخذ عن أسيانها اشتغل بالتدريس والفتيا، (عادل نويعض، المرجع السابق، ص166)

³⁶ يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 2008، ص45

³⁷ نفسه، ص69

³⁸ منصور بن علي بن عبد الله الزواوي أبو علي، (710 – بعد 770هـ) نشأ في بجاية وأخذ عن أسيانها، (عادل نويعض، المرجع السابق، ص122)

³⁹ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص74

العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد⁴⁰، كان منشغلا بالقرآن، لم يكن متسامحا في علم القراءات مشافهة وضبطا، وقد ألف كتباً في مرسوم الخط.⁴¹ و أبو جعفر بن أمية الذي وصفه صاحب الدراية بأنه كان ابن مقلدة⁴² زمانه وهي إشارة إلى دقة خطه وجماله.⁴³ ومن المصادر التي أرخت للقرن الثامن والتاسع الهجريين، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، حيث افرد له صاحبه يحيى بن خلدون مساحة هامة منه خصصها لتراجم علماء تلمسان، أشار فيها إلى من كان له خط جيد في النسخ.

الظاهر أن الناسخين من أهل المغرب الأوسط كانت لهم عناية كبيرة بالخط، وأعطوه اهتماما بالغا حتى أن بعضهم كان ماهرا في أكثر من خط، مثل أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري⁴⁴، كان كاتباً شرعياً وأديباً، يكتب بعدة أنواع من الخطوط المشرقية والمغربية، وكان مبدعاً فيها كلها حتى أنه إذا بدأ بواحد منها إلى أن ينتهي لا تجده يدخل حرفاً واحداً من الأنواع الأخرى،⁴⁵ ومنهم من تميز بسرعة النسخ، كأحمد بن العباس النقاسي⁴⁶ قال عنه صاحب نيل الابتهاج "لم ترعيني قط شرقاً ولا غرباً أسرع

⁴⁰ هو أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد بن خضر الصديقي الشاطبي، سكن بجاية وفيها كان يدرس طلبته علم القراءات، وكانت وفاته 674هـ/1276م، (أبو العباس الغبريني، المصدر السابق، ص85)

⁴¹ نفسه، ص85

⁴² ابن مقلدة، محمد بن علي (328 - 272)هـ، 886 - 940م). أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلدة. خطاط بغدادى كبير، اشتهر بأنه مهندس الخط العربي، نبغ فيه وبلغ مرتبة عالية في فنه إلى أن انتهت إليه جودة الخط وحسن تحريره، من الموقع الإلكتروني (http://www.ahlalhdeth.com/vb/showthread.php?t=321595)

⁴³ أبو العباس الغبريني، المصدر السابق، ص216

⁴⁴ هو أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري ولد ببجاية وتوفي بها عام 675هـ/1285م، عُرض عليه قضاء بجاية فرفض. (أحمد بابا التبنكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، ص280.)

⁴⁵ أبو العباس الغبريني، المصدر السابق، ص57

⁴⁶ أحمد بن العباس النقاسي (ت بعد 765) فقيه وعالم رحل من تلمسان إلى تونس قبل الحصار (عادل نويهض، المرجع السابق، ص313)

منه نسخا وكتبا ولا أقرأ منه لكل خط ما عسى أن يكون صعبا، مع جودة خطه، وصحة نقله، وضبطه.⁴⁷

لم تكن عملية النسخ حكرا على فئة تحترف النسخ، بل هناك من كان ينسخ الكتب والمصاحف، لينتفع بها هو وأسرته، ولا سيما العلماء منهم، مثل إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي⁴⁸ الذي كان ينسخ في منزله ليلا؛⁴⁹ غير أن صاحب الخبر لم يفدنا عن نوع الكتب التي كان ينسخها هل كان يقتصر على الكتب التي كان يؤلفها أم كان ينسخ غيرها.

لقد اتخذ بعضهم عملية النسخ حرفة يتكسب بها، فكان بعضهم يجعل من النسخ حرفة يتقاضى منها أجره فأبو الربيع سليمان بن عبد الرحمان بن المعز الصنهاجي المعروف بالتملساني (ت579هـ) كان يحترف النسخ ولا يقبل إلا على قدر قيمة ما نسخ.⁵⁰ ولا شك أنه كان متفرغا للنسخ، والفقيه الصالح أبو عبد الله بن البلد، الذي كان يتصدق بثمن ما ينسخه ولا يَبْقِي لنفسه إلا جزءا قليلا منه.⁵¹

ومن السلاطين من حرص على النسخ بنفسه، منهم السلطان أبو زيان محمد بن أبي حمو،⁵² الذي كان له اهتمام كبير بالعلم والعلماء، حيث قال في حقه صاحب نظم الدر والعقيان "...وكلف بالعلم حتى صار منهج لسانه، وروضة أجفانه، فلم تخل حضرته من مناظرة..⁵³" فقد ذكر أنه نسخ عدد كبيرا من المصاحف وحَبَّسها على المكتبات⁵⁴. ومنها مصحف موجود في الخزانة العامة بالرباط، مكتوب بخط

⁴⁷ احمد بابا التنبكتي، المرجع السابق، ص95

⁴⁸ هو أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي (ت بعد 692هـ)، فقيه وعالم، انتهت إليه رئاسة العلم بالمغرب، دخل تلمسان أيام يغمراس بن زيان، (احمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص38)

⁴⁹ محمد ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص151

⁵⁰ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص144

⁵¹ نفسه، ص156

⁵² تولى الحكم من سنة 796هـ/ 1394م إلى سنة 801 / 1399م، (محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص210)

⁵³ نفسه، ص211

⁵⁴ نفسه، ص211

مغربي جميل، على رق غزال، محلى بالذهب عند أول كل سورة، وعلى رأس كل آية، وجميع ما فيه من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب، نسخه بتلمسان عام 801هـ.⁵⁵

5 تذهيب الكتاب المخطوط ١

لتذهيب طريقة فنية يعتمد فيها الناسخ أو المسفر إلى كساء الأشكال والزخارف بطلاء ذهبي ليعطي منظرا براقا، باستخدام عدة طرق منها الضغط بالذهب المصهور، أو بصحائف الذهب تحت القوالب الساخنة المنقوشة.⁵⁶ واستعمل التذهيب في المخطوطات لتذهيب الغلاف وهي تقوم على لصق صحائف رقيقة من الذهب على الجلد بواسطة آلة ساخنة،⁵⁷ وكذلك لتذهيب الأشكال، والكتابات، والصور، وإطارات الكتاب، والزخارف النباتية والهندسية الموجودة في الهامش، أو داخل متن الكتاب؛ ولكن بسبب خلو المصاحف من الزخارف والرسوم اقتصر تذهيبها على بعض الكتابات بماء الذهب، بخلاف الكتب الأخرى التي امتدت الزخارف والرسوم على الهوامش وبداية الفصول ولا يمتد إلى الخط إلا قليلا.⁵⁸ ولم يكن يستعمل الذهب لوحده بل استعملت الفضة أيضا و الألوان الزاهية الأخرى.⁵⁹

وعملية التذهيب قد يقوم بها الناسخ نفسه وخاصة ما تعلق بالكتابة، وذلك باستعمال ماء الذهب أو ما كان يعرف بحجر الذهب ليكتب به ما أراد تذهيبه من حروف أو كلمات؛ ومنهم من كان يستعين بفنان يتقن هذه العملية،⁶⁰ وفي هذه الحالة كان الخطاط يترك الفراغات اللازمة، والكتابات المراد تذهيبها وتزينها؛⁶¹ ومنها ما كان يقوم به الوراق، أو المسفر ولاسيما إذا تعلق الأمر بتذهيب الجلد وكان من اشهر

⁵⁵ نفسه، هامش، رقم 534، ص211

⁵⁶ احمد شوقي بنين و مصطفى طوي، معجم مصطلحات المخطوط العربي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، مغرب، ص51

⁵⁷ احمد شوقي بنين، معجم مصطلحات المخطوط العربي، ص52

⁵⁸ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، علم المخطوط العربي بحوث ودراسات، الوعي الإسلامي ، الإصدار التاسع ، الكويت،

2014، ص93

⁵⁹ عبد الستار الخلوحي، المخطوط العربي، مكتبة مصباح، ط2، جدة، السعودية، 1989، ص228

⁶⁰ محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص84

⁶¹ سهى محمود بعيون، المرجع السابق، ص10

الخطاطين والمزوقين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهري المشهور بالأصولي،⁶² والذي كان مشهوراً عنه أنه كان يكتب المصاحف ويضبطها فيجيد.⁶³

ولم تكن كل المخطوطات تحظى بنفس الاهتمام بالتذهيب باعتبارها عملية مكلفة، ربما المخطوط المصحف نال أكثر من غيره من المخطوطات وذلك لقدسيته عند الناس عامتهم وخاصتهم؛ ولا سيما تلك التي كانت تهدى للأمراء والسلطين أو التي كانت تنسخ لتحبس في بيت الله الحرام.

وللوقوف على عملية التذهيب بالمغرب الأوسط، فإن الكتب المصدرة كانت شحيحة في هذا الباب، إذ لازال المذهبون والمسفرون في المغرب الأوسط مجهولون لدينا، ولكن يمكن استنتاج ذلك من خلال ما تبقى من مخطوطات .

فمن خلال مقدمة محمود بوعياذ والذي حقق كتاب نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان لمحمد التنسي، والذي سمحت له الفرصة أن تقع بين يديه نسخة خاصة، كانت عناوينها والأسماء فيها مذهبة، إضافة إلى الزخرفة في تذهيب الخطوط بل تعدته إلى أنواع أخرى من التزييق،⁶⁴ كما تم تذهيب الأشكال الهندسية وأشكال الأزهار وضعت بين السور المذهبة، كما ذهبت عناوين الأبواب، وبعض الأسماء كأسماء الملوك والأمراء من بني عبد الواد.⁶⁵

كما أفادنا محمد المنوني عن المصحف الذي كتبه السلطان الزياني أبي زيان محمد الثاني قال بأنه كان محلي بالذهب عند أول كل سورة، وعلى راس كل أية، وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مرقوم بالذهب.⁶⁶

⁶² هو من أهل بجاية رحل إلى المشرق، ثم انتقل إلى الأندلس وولي القضاء في مدنها، واستخلف في مراكش، وولي القضاء في بجاية

ثلاث مرات، وتوفي بها سنة 612هـ/ 1215م؛ (أبو العباس الغبريني، المصدر السابق، ص29)

⁶³ محمد المنوني، قبس من المخطوط المغربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1999، ص29

⁶⁴ محمد بن عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص84

⁶⁵ المصدر نفسه، ص85

⁶⁶ محمد المنوني، قبس من المخطوط المغربي، ص22

يبدو واضحا أن التذهيب كان يخص عينات من المخطوطات وعلى رأسها المصاحف التي كان ينسخها السلاطين بأيديهم، أو التي كانت تهدى لهم، كما حظيت الكتب النفيسة بنفس القدر والاهتمام بالتذهيب، ولو أن نسبة التذهيب اختلفت من نسخة إلى أخرى فقد اكتفى البعض بالغلاف فقط ومنهم من تعدى ذلك، ولم تكن العملية من الأمور السهلة فقد كانت تتطلب دقة وعناية لا تقدر عليه إلا يد أنامل فنان هذا إلى جانب الوقت الذي ستغرقه.

6 - التجليد (التفسير)⁶⁷

اعتبرت صناعة التفسير من الصناعات الهامة، والتي تمثل المرحلة الأخيرة من صناعة المخطوط، وهي تعد ضمن الفنون العربية الجميلة، فلم تعد مجرد كسوة الكتاب بالجلد بل أصبحت فنا بفضل ما يحمله الكتاب من زخرفة وتزييق، و تلوين، وتذهيب؛ بالإضافة إلى ما يحمله الكتاب من تصاميم.⁶⁸ كان التجليد موجودا قبل الإسلام، ولما انتشرت عملية نسخ القرآن الكريم أولى لها المسلمون عناية فائقة للحفاظ على أوراقه من التلف، فكانوا في بداية الأمر يستعملون لوحين من الخشب جمعت بينهما أجزاء من القرآن الكريم.⁶⁹

بعد التطور الذي عرفته حرفة التفسير في استعمال الأدوات، اهتم به المؤلفون حيث ألفت فيه الكتب لشرح طرق استعمال مواد التجليد وصناعتها، ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أهم ما ألف في مجال التفسير خلال العصر الوسيط كتاب "التيسير في صناعة التفسير" لأبي بكر عمر بن إبراهيم الاشبيلي يشرح فيه طريقة ومراحل التفسير والأدوات التي يحتاجها المسفر وكيفية تحضيرها، وقد تم نشر الكتاب في سنة 1960 في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد.

⁶⁷ شاع عند أهل المشرق استعمال التجليد أما أهل المغرب فيستعملون لفظ التفسير وتعني كسوة الكتاب بالغلاف، (احمد شوقي بنين، معجم مصطلحات المخطوط العربي، ص48)

⁶⁸ عبد الله كنون، كتاب التيسير في صناعة التفسير لأبي بكر بن إبراهيم الاشبيلي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السابع والثامن، 1960، ص3.2

⁶⁹ إيداد خالد الصباغ، المخطوط العربي دراسة في أبعاد الزمان والمكان، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010، ص85

كان المسفر يتمتع بالمهارة باعتبارها حرفة تتطلب عناية وتقنية خاصة، ومنهم من اشتهر بهذه الحرفة لدرجة أن تلقب بالمسفر ونعني هنا محمد بن يحيى الباهلي البجائي عالم بجاية وفقهها وقاضياها.⁷⁰ لم يكن المسفرون يكتفون بتجليد الكتاب بل كانوا يهتمون بتجميل الجلد إما بالزخارف، و الأشكال الهندسية ليعطي للغلاف صورة جمالية فقد عثر على مخطوط يعود إلى القرن الرابع الهجري يحمل عنوان "عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب" للخليفة الفاطمي المعز بن باديس حيث امتاز جلد الغلاف بوجود زخارف في وسطه.⁷¹

ولا شك أن عملية التجليد لم يكن يقوم بها إلا من كان محترفا، فبعضهم كان ناسخا فقط و منهم من كان مجلدا ومنهم من جمعهما معا، ومن وقفنا عليهم في المغرب الأوسط يقوم بهذا العمل، الناسخ أحمد بن حسن البلياني التلمساني⁷²، الذي نسخ مصحفا للسلطان المريني أبي يعقوب يوسف (695). 706هـ⁷³، حبسه على الحرم المكي وصفه ابن خلدون بقوله " مصحف رائع الصنعة، كتبه ونقحه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وعمل غشائه، من بديع الصنعة، وأستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرازات الدر و الياقوت، وجعل منها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقدارا وشكلا وحسنا، واستكثر من الاصونة عليه"⁷⁴.

7 خاتمة:

⁷⁰ أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص 401

⁷¹ إياد خالد، المرجع نفسه، ص 88

⁷² لم نقف على ترجمة له

⁷³ استولى السلطان المريني أبي يعقوب يوسف على المغرب الأوسط، وبنى من القرب من تلمسان مدينة سماها المنصورة، (محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 1985، ص 211، ص 130)

⁷⁴ عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 7، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2000، ص 299.

خلاصة القول حول صناعة المخطوط بالمغرب الأوسط، كانت تمر بمراحل من النسخ الى المذهب إلى المسفر، و كان بعضهم اتخذها حرفة يسترزق منها إلا أن المصادر لم تعطيها أي اهتمام وعليه يمكن اعتبار أصحابها من المهمشين إلا من كان حاذقا في العلم.

كان المغرب الأوسط يزخر بثلة من الناسخين كرسوا وقتهم في نسخ الكتب وسعيا منهم لنشر العلم على الرغم من اختلاف أوضاعهم الاجتماعية فكان منهم العالم ومنهم الحرفي ومنهم الأمراء.

إن سكوت المصادر عن المسفرين والوراقين والناسخين لا يعكس أهمية الصنعة، والدور الذي لعبته في تنشيط حركة التأليف و نشر العلم فمجرد رؤية الكتاب المخطوط اليوم يظهر لنا ذلك الحرص الشديد الذي بذله الخطاطون والجهود التي كرسها المسفرون في سبيل العلم.

كانت صناعة المخطوط تتطلب جهد الناسخ وفنيات المذهب ومهارة المسفر لإخراج الكتاب في أحسن حلة؛ وكان المصحف قد حظي باهتمام الجميع من عامة الناس ومن خاصة الأمراء والسلاطين حيث انه خص بأجود الخطوط ارفع الرقوق واحلي الزخارف المذهبة وذلك لقدسيته وحبا في ابتغاء رضوان الله تعالى.

5. قائمة المراجع:

إبراهيم بحاز، الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.

ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة، تحقيق، احمد الزعي، دار الهدى، عين مليلة، 2000
ابن خلدون، عبد الرحمن ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج7، 2000.

ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، ج1، تحقيق، ج.س. كولان و ليفي بررونسال، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان، 1983

ابو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق ابن خلدون يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

أبو العباس بن أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية و الأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985

- أبو زيد الدباغ (697هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد أبو النور ومحمد ماضي، المكتبة العتيقة، تونس، دت
- احمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، احمد شوقي بنين، في الكتاب العربي المخطوط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2013.
- احمد شوقي بنين، و مصطفى طوي، معجم مصطلحات المخطوط العربي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، 2003.
- إياد خالد الصباغ، المخطوط العربي دراسة في أبعاد الزمان والمكان، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010.
- حسن الوراكلي، مباحث في تراث الغرب الإسلامي، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 2013.
- سهى محمود معيون، كتابة المصاحف في الأندلس، مجلة الدراسات القرآنية، العدد السابع، السنة الرابعة.
- عادل نويهض، أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض للثقافة، بيروت، لبنان، 1980.
- عبد الله كنون، كتاب التيسير في صناعة التفسير لأبي بكر بن إبراهيم الاشبيلي، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السابع والثامن، 1960.
- القلقشندي، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج2، 1913.
- محمد ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 2008.
- محمد ابن مرزوق، والمسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيوس بغيرا، موفم للنشر، الجزائر، 2011.
- محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.
- محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص1985.
- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، علم المخطوط العربي بحوث ودراسات، الوعي الإسلامي، الإصدار التاسع، الكويت، 2014.